١١ ـ بين القاهرة وطوس

اصفهان

«نصف جهان»[1]

للدكتور عبد الوهاب عزام

خرجنا من قم والساعة ثلاث بعد الظهر ، سائرين الى الجنوب تلقاء أصفهان ، وبين قم وأصفهان ٢٨٢ كيلا ، فما زلنا نضرب فى سهوب مترامية تعمرها قرى قليلة ، حتى قطعنا ٩٢ كيلا فى ساعتين ، فبلغنا قرية دليجان ، وهى قرية كبيرة على الجادة يبدو عليها الفقر ، وبيوتها كغيرها من قرى إيران ، مسنّمة السقوف ، مطينة الجدُر ، فاذا رأيتها على بعد حسبتها قبوراً عالية . وقفنا فى القرية على بناء كتب عليه بالانكليزية أنه مطعم ومشرب شاى ، وهو طبقتان فى كل واحدة حجرتان ، وللطبقة العالية سلم من اللبن يهبط الى الطريق

دخلنا فقدم لنا الشاى والبطيخ ، واسترحنا قليلاً ، ثم ركبنا سيارتنا وقد كادت الشمس تغرب . قلنا : كم بيننا وبين أصفهان ؟ قيل أربع ساعات ، وبين دليجان وأصفهان ١٩٠ كيلاً . وقال سائق السيارة لصاحب المطعم سنمرّ بك بعد غد ، فهيىء لنا دجاجة وحساء ، قال نعم ، ذلك وكل ما تشتهون

ضربنا فى أرض بلقع يتخللها عمران قليل ، حتى بلغنا بلدا اسمه شاه عباس ، بينه وبين أصفهان خمس وعشرون دقيقة ، فتغير مرأى الأرض ، وبدت لنا الأشجار والزروع والمياه ، وما زلنا فى أرض مخصبة مخضرة حتى دخلنا المدينة والساعة تسع وخمس دقائق من مساء السبت حادى عشر رجب (٢٠ اكتوبر)

أصبهان : مدينة العراق العجمى ، على ٤٣١ كيلاً الى الجنوب من طهران ، وعرضها ٣٢ درجة وطولها ٤٩ ، وارتفاعها ١٣٤٤ . وهى فى سهل واسع خصب ، حسن الهواء كثير الماء والشجر ؛ قال ياقوت : « وكانت مساحة أصبهان (أى الأقليم) ثمانين فرسخاً فى مثلها ، وهى ستة عشر رستاقاً كل رستاق ستون وثلاثمائة قرية قديمة سوى المحدثة » . ولا ريب أن فى رواية ياقوت غلواً تابع فيه الأقوال الشائعة . وقد قال هو عن اصبهان : « مدينة عظيمة مشهورة ، من أعلام المدن وأعيانها . ويسرفون فى وصفها حتى يتجاوزوا حد الاقتصاد »

وقد أدى الى إغراق الناس فى وصف أصفهان وأقليمها استبحار العمران هناك ، وكثرة القرى ، والمياه والزروع . وقد حدثنى مهندس ألمانى فى مدينة أصفهان أن من بقاع اصفهان بقعة يسير فيها السائر خمسة عشر كيلاً بين الأشجار . وتُنبت الأقليم القطن والتبغ والبطيخ وكثيراً من الفاكهة

والمدينة على نهر زنده رود (النهر الحى) ، ويسمى اليوم زاينده رود (النهر الوَلود) . حدثنى رجل أنه سمّى بهذا لانبجاس مياهه من الأرض فى مواضع كثيرة . قال ياقوت : « زند روذ نهر مشهور عند أصبهان ، عليه قرى ومزارع ؛ وهو نهر عظيم أطيب مياه الأرض وأعذبها » . وقال فى موضع آخر : « وقد وصفه الشعراء فقال بعضهم :

لست آسى من اصبهان على شى ... ء سوى مائها الرحيق الزلال
ونسيم الصبا ومنخرق الري ... ح وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الما ... ذىّ والصافنات تحت الجلال»

وكذلك قال الحجاج لبعض من ولاّه اصبهان : قد وليتك بلدة حجرها الكحل ، وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران . وقال آخر :

لست آسى من اصبهان على شى ... ء أنا أبكى عليه عند رحيلى
غير ماء يكون بالمسجد الجا ... مع صاف مروّق مبذول . اه

ولعل قول كل من هذين الشاعرين « لست آسى » لما تحدث به القدماء من وصف أهل اصبهان بالبخل . وقد حكى عن الصاحب ابن عباد أنه كان إذا أراد الدخول الى اصبهان قال : من له حاجة فليسألنيها قبل دخولى الى اصبهان ، فانى إذا دخلتها وجدت بها فى نفسى شحّاً لا أجده فى غيرها . وقد روى ياقوت بيتين كتبا فى بعض الخانات التى فى طريق اصبهان :

قبّح السالكون فى طلب الرز ... ق على أيذج الى اصبهان
ليت من زارها فعاد اليها ... قد رماه الاله بالخذلان

(١) يقول الفرس اصفهان نصف جهان . أى أصفهان نصف العالم

وعلى نهر اصبهان اليوم ثلاث قناطر من عجائب الآثار ، أكبرها قنطرة « اللهوردى خان » أحدقواد الشاه عباس ، وتسمى اليوم « پل سى وسه جشمه » ، أى القنطرة ذات الثلاث والثلاثين عيناً . وهى مبنية بالحجارة الضخمة ، تسير فوقها طريق واسعة لها جداران عاليان . والنصف الأسفل من عيونها يسد بالخشب إذا أريد حبس الماء ، وعلى جانبى العيون فى قاع النهر سنادان من الحجر يسير عليهما الناس حين انخفاض الماء

ومدينة اصبهان قديمة ذكرها بطليموس . وكانت ذات مكانة عظيمة قبل الأسلام ؛ ولم تزل فى الاسلام معدودة من أمهات المدن الفارسية

وقد تقلبت بها غِيَرٌ كثيرة واهتمت بالسيطرة عليها كل الدول الأسلامية الشرقية ، فتولى أمرها السامانيون والبويهيون والغزنويون والسلاجقة ، وكان السلطان ملكشاه السلجوقى يحب المُقام بها . ولما سالت على المسلمين كوارث التتار ، ساروا اليها سنة ٦٢٥ فدفعهم عنها البطل العظيم جلال الدين خوارزمشاه ، ولما كانت الدولة التيمورية ثار أهل أصفهان على الجبار تيمورلنك سنة ٧٩٠ فقتلهم حتى قيل إنه جمع سبعين ألف رأس فبنى بها أهراماً

وأمجد عهود أصبهان عهد الدولة الصفوية ، ولا تزال آثارها ناطقة بما كان لها من جلال وجمال فى ظل هذه الدولة

وقد بلغ سكانها فى ذلك العهد ستمائة ألف ، وكان بها ثمانية وثلاثون ألف دار ، واثنان وستون ومائة جامع ، وثمان وأربعون مدرسة ، وثلاث وسبعون ومائتا حمام ، وثمانمائة وألف خان ، (كاروانسراى) وكان محيطها فيما يقال أربعة وعشرين ميلا

ولما أغار الأفغانيون على إيران وقضوا على الدولة الصفوية ، ثم صارت طهران دار الملك تناقص عمران المدينة ، ودالت دولتها ، وسكانها اليوم ثمانون ألفاً ، ومحيطها ميلان ، ولكن لها شأناً عظيماً فى التجارة والصناعة

دخلنا المدينة ليلاً ، فأوينا إلى فندق اسمه (فندق الفردوس) . وكان يسمى الفندق الأمريكى ، وهو فى شارع واسع مشجر قديم يقال إن أشجاره من عهد الشاه عباس الكبير ، وهو أعظم شوارع المدينة . وجاءنا بعد قليل رئيس البلدية فحيانا وقال إنه يود أن ننزل داراً خاصة فى ضيافة الحكومة ، فشكرنا له وللحكومة هذه الحفاوة ، وآثرنا أن نبقى فى الفندق ، فأبلغنا دعوة الحاكم إيانا الى العشاء فى داره غداً

لم يمكنا الأعياء من التجول فى المدينة تلك الليلة ، ولكن نعمنا بمرأى أشجار الحور الباسقة تنثر على الأرض ضوء القمر ، كما تتناثر فى خيالنا ذكرى الماضى المجيد من هذه البلدة الخالدة ، التى نشأت من علماء الأسلام الأعلام أمثال أبى الفرج الأصفهانى وداود بن على صاحب المذهب الظاهرى ، وأبى نعيم صاحب الحلية ، وحمزة المؤرخ

وكنا نسمع فى الحين بعد الحين جلجلة الأجراس فى أعناق الابل أو الثيران السائرة فى المدينة . وهذا صوت مطرب فى جوف الليل ، ولكنه يذهب بالنوم . وغدونا الى دار الحكومة فقابلنا حاكم أصفهان وهو أحد الوزراء السابقين ، ورجال الصحافة القدماء ، وكان له جريدة تسمى صور اسرافيل فغلب اسمها عليه فهو اليوم يسمى فاسم صور اسرافيل ، ويتسمى هو بهذا الاسم ويكتبه على بطاقته ، وكذلك جاء الى دار الحكومة نفر من الألمان ، منهم الدكتور شميت الصحافى الذى ينشر جريدة فى أنقرة الآن ، وكان مندوباً الى مؤتمر الفردوسى ولكنه تأخر

خرجنا لرؤية آثار اصفهان الرائعة . وإنى أشفق على القارئ أن أصف المساجد والقصور التى رأيناها وصفاً مفصلاً ، فمن شاء أى يرى صور هذه الآثار فليذهب الى الجمعية الجغرافية ليرى قاعة المحاضرات مزدانة بصور كثيرة من الآثار الفارسية ، أعظمها وأجلها آثار اصفهان

فى المدينة ميدان كبير قال لنا مهندس ألمانى إنه أكبر من ميدان الكنكورد فى باريس ومن كل ميدان فى مدينة

وكان هذا الميدان للعب الكرة والصولجان على ظهور الخيل (الجوكان) ، ولاتزال فيه العمد الخشبية التى تُعلَّم غاية اللعب . وفى وسطه حوض كبير تنبجس منه نافورات قوية ؛ وهى من آثار الصفويين ، وقد أصلحت أخيراً

ويحيط بالميدان آثار الصفويين : مسجد الشاه ومسجد

الشاه لطف الله والباب العالى والسوق

مسجد الشاه من أجمل مساجد المسلمين ، بل من أعظم آثار العالم قاطبة ، بناء ضخم وهندسة محكمة ، وصنعة الكاشانى والكتابة والنقش لم تدع مزيداً لصانع أو ناظر . ولا يرى مقدار شبر فى جدر المسجد أو إيواناته أو قبابه خالياً من هذه الصنعة ، فقد أفرغ الجمال على هذا المسجد كتابة ونقشاً وتلويناً

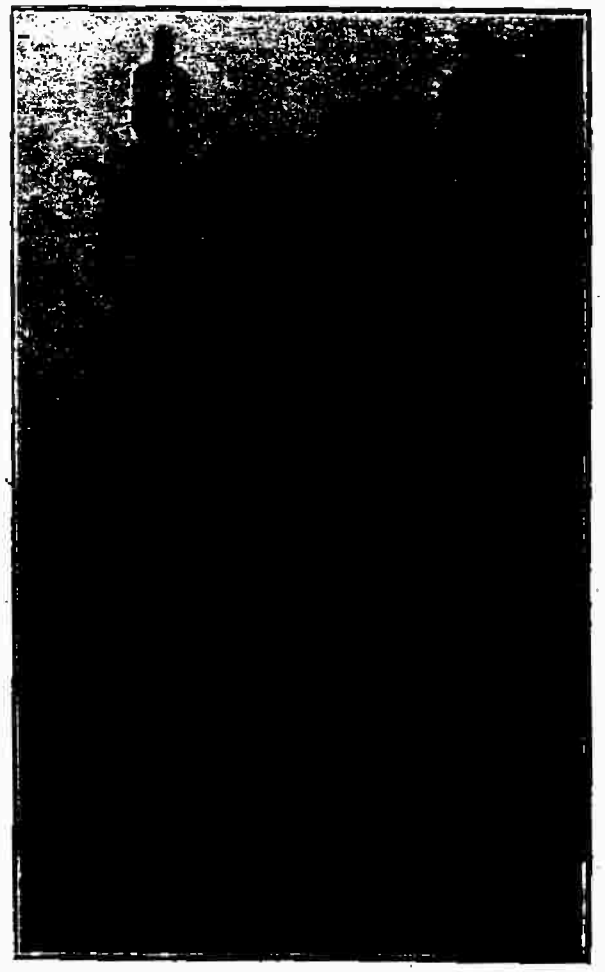

مدخل جامع الشاه باصبهان

وفوق إيوان القبلة قبة شاهقة تعلوها قبة أخرى ، وبينهما ستة عشر متراً ، فاذا وقف الانسان فى مركز القبة وصفق بيديه صفقة خفيفة ، أو تكلم بصوت خافت ، أو حكّ الأرض برجله انبعث الصدى عالياً مدوّياً مردّداً فى القبة أكثر من عشر مرات

ومسجد الشاه لطف الله أصغر من هذا ، ولكن فيه من الفنون دقائق عجيبة ، وفيه طبقة تحت الأرض للصلاة فى الشتاء

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

اللهَ قد عَبَدُوا

للأستاذ فخرى أبو السعود

وَيْلِي عَلَى أُمَمِ الْإِسْلَامِ خَاضِعَةً ... لِلْمُسْتَبِدِّينَ لَا يَرْثِي لَهَا أَحَدُ

مَنْ قَالَ لِي: مَنْ يُقِرُّ الضَّيْمَ؟ قُلْتُ لَهُ: ... أَلْمُسْلِمُونَ وَغَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ !

فِي مَشْرِقِ الْأَرْضِ قَدْ دَانُوا وَمَغْرِبِهَا ... مَا كَادَ يَنْجُو لَهُمْ مِنْ عَاصِبٍ بَلَدُ

فِي رِبْقَةِ الظُّلْمِ هُمْ جَاءُوا وَهُمْ ذَهَبُوا ... وَفِي الْمَذَلَّةِ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ وُلِدُوا

صَامُوا وَصَامُوا لِبَارِيهِمْ تُظَلِّلُهُمْ ... أَعْلَامُ مَنْ ظَلَمُوا أَوْ سَيْفُ مَنْ عَنَدُوا

يَا لَيْتَ شِعْرِي أَلِلدَّيَّانِ مَا قَنَتُوا ؟ ... أَمْ لِلْمُغَالِبِ مَا قَامُوا وَمَا سَجَدُوا ؟

يَا قَوْمُ مِنْ شِرْعَةِ الْإِسْلَامِ دِينِكُمُ ... أَنْ لَيْسَ يُعْبَدُ إِلَّا الْوَاحِدُ الصَّمَدُ !

أَتَرْتَضُونَ سِوَى الرَّحْمَنِ مُحْتَكِماً ؟ ... مَا إِنْ لِقَوْمٍ إِذَا مَا اسْتُعْبِدُوا رَشَدُ

أَللهُ لَيْسَ يُحِبُّ الدِّينَ مِنْ أُمَمٍ ... لِغَيْرِهِ طَأْطَأُوا أَوْ غَيْرَهُ عَبَدُوا

لَعَلَّ أَدْنَى إِلَيْهِ فِي مَرَاتِبِهِ ... عَدُوَّكُمْ وَهْوَ مَاضِي الْعَزْمِ مُجْتَهِدُ

أُخْفِي عَلَيْكُمْ بِجُنْدٍ مِنْ عَزَائِمِهِ ... وَمِنْ جَهَالَتِكُمْ جُنْدٌ لَهُ حُشُدُ

لَوْلَا تَفَاقُمُ هَذَا الْجَهْلِ بَيْنَكُمُ ... لَمْ يُغْنِهِ عَدَدٌ فِيكُمْ وَلَا عُدَدُ

لَا يَبْلُغُ الْعِزَّ قَوْمٌ عَنْ جَهَالَتِهِمْ ... لَا يَنْزِعُونَ وَعَنْ مَسْعَاتِهِمْ قَعَدُوا

إِنَّا نَؤُومُ الضُّحَى لَيْسَتْ تُزَايِلُنَا ... أَحْلَامُنَا وَهْوَ فِي جُنْحِ الدُّجَى سُهُدُ

مَا دَامَ ذَا الْجَهْلُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ... فَفِي قَضِيَّتِكُمْ - لَا يَنْقَضِي - فَنَدُ

قَدْ ذَمَّكُمْ بِالَّذِي فِيكُمْ فَلَا كَذِبٌ ... فَإِنْ غَلَا فَلَهُ مِنْ جَهْلِكُمْ سَنَدُ

كَمْ تَقْنَعُونَ بِدُونِ الْعَيْشِ مَرْتَبَةً ... فِي الْعَالَمِينَ؟ وَكَمْ ذَا الذُّلُّ مُطَّرِدُ؟

مَنْ لِي بِعَهْدٍ بِهِ آبَاؤُنَا مَلَكُوا ... بِكَفِّهِمْ كُلَّ مَا حَلُّوا وَمَا عَقَدُوا ؟

لَا يَقْبَلُونَ وَصَاةَ الْأَوْصِيَاءِ وَلَا
أَحْكَامَ مَنْ أَسْرَفُوا فِي الْحُكْمِ أَوْ قَصَدُوا

أَللهَ قَدْ عَبَدُوا دُونَ الْوَرَى وَلَهُ
بِذَاكَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ قَدْ شَهِدُوا

فخرى أبو السعود